تراجع دور مؤسسات العلم الدينى

أ.د / د.طه مصطفى أبو كريشة
عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
مصر

مقدمة:

أولا : دور المؤسسات العلم الدينى:

من المؤكد أن دور مؤسسات العلم الدينى هو دور متعدد الوجوه ومتعدد البواعث، ومتعدد الغايات والأهداف وهذا التعدد نابع من الرسالة التى تقوم بها هذه المؤسسات فى المجال الدينى، وهذه الرسالة مرتبطة ارتباطا وثيقا برسالة الإسلام، ورسالة الإسلام جاءت لهداية البشر، ولإصلاح حياتهم، ولإخراجهم من الظلمات إلى النور، من ظلمات الشرك والإلحاد إلى أنوار التوحيد وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ومن ظلمات الضلالة إلى أنوار الهداية، ومن ظلمات الانحراف إلى أنوار الاستقامة، ومن ظلمات الباطل إلى أنوار الحق، ومن ظلمات الشر إلى أنوار الخير، ومن هنا كان لابد من وجود من يحمل هذه الرسالة ويبلغها للناس فى كل زمان ومكان، وقد قام النبى ﷺ بأمانة التبليغ منذ بعثته وإلى أن لحق بالرفيق الأعلى، ولكن لأن الرسالة خاتمة الرسالات؛ فلابد من وجود من يحمل أمانة التبليغ بعد وفاة النبى ﷺ، وقد تحدد ذلك فى العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وكما أخبرنا بذلك النبى ﷺ فى قوله: «**العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ولكنهم ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظه**» وفى قوله: «**نَضّر الله عبدا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وبلغها من لم يسمعها، فَربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه**».

(أ) وإذا كان العلماء هم ورثة الأنبياء فلا بد من إعداد هؤلاء العلماء، إنهم لن يتنزل عليهم الوحى كما كان ينزل على النبى ﷺ، ومن هنا يأتى دور من أدوار مؤسسات العلم الدينى وهو دور الإعداد والتكوين من خلال التعليم والتعلم القائم على دراسة منهج التبليغ الذى جاء بيانه فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة، وفى سائر الدراسات العلمية التى قامت حولهما، والتى تحتويها

المقررات الدراسية المتخصصة، والتى تقوم بإعدادها وتدريسها هذه المؤسسات فى شتى أرجاء العالم الإسلامى على نحو يؤهل الدارسين إلى أن يصبحوا قادرين على تحمل أمانة التبليغ القولى لرسالة الإسلام، ولتوصيلها إلى كافة أرجاء العالم، لأن الإسلام رسالة عالمية لا تختص بمكان واحد لا تتعداه، ولا تتوقف عند زمان معين لا تتخطاه، تحقيقا للإخبار الإلهى الذى جاء فى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧) وفى قوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف:١٥٨).

(ب) ويترتب على هذا الدور التعليمى الدور الثانى وهو دور الإبلاغ والإرشاد، دور إخراج هذا العلم إلى الناس كافة ليعلموا حقيقة دينهم، وليعلموا حدود المنهج الذى يسيرون عليه فى حياتهم، لأن الدنيا ليست محصورة فى العلوم الدينية حتى يتخصص فيها الناس جميعا، وإنما العلم الدينى جانب من جوانب العلوم التى تقوم عليها الحياة، وقد جاءت الإشارة إلى ذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة:١٢٢)، وقد جاءت التوجيهات القرآنية والنبوية التى توضح المنهج السديد فى القيام بهذا الدور على أكمل وجه، ومن هذه التوجيهات ما جاء فى قول الله عز وجل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾(النحل:١٢٥) وتلك هى وسيلة الوصول إلى القلوب، وإلى إقناع العقول، وإلى اجتذاب النفوس إلى صراط الله تعالى المستقيم.

ومن هذه التوجيهات ما يبين ضرورة أن يكون القائم بهذا الدور جامعًا بين القول والعمل، وإن يكون قدوة فى سلوكه، وأن يوقن فى ذات نفسه أنه يقوم بأجلّ رسالة، وبأحسن عمل فى هذه الحياة، كما قال تعالى عن هؤلاء ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (فصلت:٣٣)، وكذلك فإن على القائم بالإبلاغ والإرشاد ان يكون واثقا من نفسه، ومن حصيلته العلمية التى يرفع رأسه من خلالها عاليا، مستحضرا دائما قول الله عز وجل: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف:١٠٨).

ومن التوجيهات النبوية التى يجب أن يسير عليها القائمون بالإبلاغ والإرشاد ما جاء فى قولــه

ﷺ: «يسّروا ولا تعسّروا وبشّروا ولا تنفّروا».

(ج) ثم يأتى الدور الثالث لمؤسسات العلم الدينى وهو دور المتابعة والمراجعة والتصحيح لكل ما يظهر على الساحة الحياتية من أمور تخالف ما جاء فى المنهج الربانى وهى أمور متوقعة ،ولا يخلو منها مجتمع، إذ لا يوجد المجتمع الكامل القائم على الفضائل فحسب، ولكنّ هناك فرقا بين توقع وجود الأخطاء والمخالفات، وبين إقرارها والسكوت عنها، دون اعتراض عليها، ودون إنكار لها، إن الإسلام مع إقراره بأن كل بنى خطاء لكنه يبين لنا فى الوقت نفسه أن خير الخطائين التوابون ومن هنا يبرز لنا هذا الدور الذى تحدد له مصطلح (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) وهو دور يمثل العين الساهرة القائمة على إحسان التطبيق العملى فى الحياة لكل ما جاء فى الكتاب والسنة، حتى تكون الحياة مرآة صادقة تعكس حقيقية الإسلام، وجوهر هذا الدين، وتكون بمثابة التبليغ السلوكى إلى جانب التبليغ القولى، وهما أمران يجب أن يسيرا معا جنبا إلى جنب دون افتراق، وقد جاء بيان هذا الدور فى قول الله عز وجل: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران:١٠٤)، إن هذا الدور يمثل صفة ملازمة لمجتمع المؤمنين الصادقين، كما، كما جاءت الإشارة إلى ذلك فى قول الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة:٧١)، وكذلك فإن هذه الصفة هى الصفة الأولى التى أعطت أمة الإسلام درجة الخيرية على غيرها من سائر الأمم كما قال عز وجل: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (آل عمران:١١٠)، وقد جاء التحذير من السير على منهج الأمم السابقة التى شاع فيها المنكر المسكوت عنه، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران:١٠٥)، ومن هذه الأمم أمة اليهود الذين جاء الإخبار عنهم فى قول الله تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (المائدة: ٧٨-٧٩)، وإلى جانب هذا التوجيه القرآنى فى ضرورة القيام بهذا الدور فقد جاءت التوجيهات النبوية الكثيرة التى تحث

على ذلك، ومن هذه التوجيهات قول النبى ﷺ: «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**» وقد جاء التحذير من التقصير فى القيام بهذا الدور، ومن ذلك قوله ﷺ: «**إن القوم إذا رأوا المنكر فلم يغيروه عمهم الله بعقاب**».

ثانيا : أسباب تراجع مؤسسات العلم الدينى عن أداء دورها:

عندما ننظر فى واقع مؤسسات العلم الدينى من خلال الأدوار السابقة التى أوضحناها، فإننا نلاحظ أن هناك أسبابا كان لها أثر فى إحداث التراجع بالنسبة لكل دور من هذه الأدوار.

(أ) فيما يتصل بالدور الخاص بالتعليم والتعلم فإن التراجع فى هذا الدور يعود فى المقام الأول إلى عدم انتقاء الفئة المتعلمة بحيث تكون هى القادرة على التزود بالعلم الصحيح النافع الذى من خلاله تستطيع أن تقوم برسالتها التى تخص الإبلاغ والإرشاد والتوجيه، ثم القيام بالرسالة الثانية التى تخص الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهى الرسالة التى تقوم على تصحيح الواقع، وإعادته إلى الوجه الحقيقى للإسلام المستمد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

ولقد عرفنا من القرآن الكريم أن الحديث عن الجهاد فى سبيل الله عز وجل، والحديث عن التفقه فى علوم الدين ينطلقان من لغة قرآنية واحدة، ومعنى ذلك أنهما يتساويان فى الباعث والهدف والغاية، فكل منهما يعمل على الذود عن حياض الدين، ويعمل على إعلاء كلمة الله تعالى، لتكون هى العليا فى كل زمان وفى كل مكان..

إن هذه اللغة المشتركة فى الحديث القرآنى نراها من خلال استخدام الفعل (نفر) التى تعنى الخروج القوى المتحمس، ففى الحديث عن الجهاد القتالى نرى قول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾ (النساء:٧١)، كما نرى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التوبة: ٣٨-٣٩)، كما نرى قوله عز وجل: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة:٤١).

وفى الحديث عن الخروج للتفقه فى علوم الدين نرى قول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ

لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة:١٢٢).

ومادامت اللغة القرآنية لغة واحدة فى هذين الميدانين، فإن ذلك يجعلنا نتساءل: هل كل الناس صالحون للخروج للجهاد القتالى دون تفرقة بين القوى والضعيف وبين الكبير والصغير، وبين الذكر والأنثى، وبين سليم الجوارح ومن به علة فيها ؟، وإذا كان الجواب بالنفى، وأنه لابد من اختيار وانتقاء فئة خاصة من الناس يكونون هم وحدهم الصالحين للتجنيد العسكرى، والالتحاق بسلك المحاربين فإن ذلك يدعونا للقياس عليهم فيما يتصل بالخارجين النافرين للتفقه فى الدين، وأن علينا أيضا أن ننتقى وأن نختار من يصلح ليكون جنديا فقيها فى علوم الدين وإذن فعلى أى أساس يكون الانتقاء والاختيار ؟ إن ذلك لن يكون إلا من خلال ذوى العقول الراجحة، التى تتمتع بالذكاء العالى، وبالقدرة على الفهم المستنير، وعلى الإفصاح عن أسرار العلوم، وبالتالى فلابد من استبعاد ذوى الذكاء المتدنى، وضعاف العقول، ومتأخرى الفهم والإدراك، فهل هذا هو ما يحدث فعلا فى عالم الواقع ؟ إن الواقع يخبرنا بغير ذلك؟ فقد ابتلينا فى هذا العصر بمصطلحات حديثة أطلقت على بعض المؤسسات العلمية أنها مؤسسات قمة، وبالتالى فإن مفهوم المخالفة يعنى أن غيرها مؤسسات القاع، والقاع يساوى الحضيض، ومن هنا أتجه الأذكياء إلى مؤسسات القمة، بينما لم يتبق لمؤسسات القاع إلا ذوى الحد الأدنى من الذكاء ومن هنا حدث الخلل، وحدثت بداية التراجع الذى تعانى منه مؤسسات علوم الدين، لأنها لم تحظ بأن يطلق عليها أنها مؤسسات قمة، وبخاصة عندما رأى الناس أن مؤسسات القمة هى التى تضمن لطلابها مستقبلا ماديا أفضل، وعيشا رغدا هنيئا أما طلاب مؤسسات القاع فليس لهم إلا ضنك العيش ،وقلة الزاد، والوقوف فى مؤخرة الركب.

هذا هو السبب الحقيقى فى تراجع الدور التعليمى لمؤسسات العلم الدينى، ومن ثم توالى التراجع فى الأدوار الأخرى.

وبالإضافة إلى هذا السبب الخاص بطريقة الاختيار والانتقاء فإن هناك أسبابا أخرى تشارك هذا السبب فى إحداث تلك النتيجة، وهى تخص أماكن تلقى العلم فى هذه المؤسسات، إذ ليس كلها صالحا للتلقى المفيد القائم على الأخذ والعطاء والمناقشة والحوار، نظرا لكثرة الأعداد مع ضيق الأماكن، وهما أمران إذا اجتمعا لم يكن من ورائهما إلا إحداث العزلة العلمية بين الدارسين وأساتذتهم، وهى عزلة تقضى على أى بادرة من بوادر التميز فضلا عن الوصول إلى الحد الأدنى فى العلم الدينى.

وأيضا فإن من هذه الأسباب ذلك السبب الذى يعود إلى النظم المعمول بها فى الامتحانات، ومنها نظام الفصل الدراسى الذى قسم السنة الدراسية قسمين، لكل قسم امتحان خاص، الأمر الذى جعل اغلب أيام العام الدراسى تقضى فى أداء الامتحانات، ومن ثم كان من وراء ذلك الجور على الأيام الدراسية ذاتها، ومن هنا غابت أبواب كثيرة من أبواب العلم، وأصبح الطلاب لا يعرفون عنها شيئا وبالتالى فإنهم يتخرجون فى هذه المؤسسات وبهم هذا القصور أو هذا الغياب العلمى، فأنّى لهم أن يقوموا برسالتين فى المستقبل على الوجه الأكمل فى جانبى البلاغ والتصحيح؟ إن هذه النتيجة لا تخص هؤلاء الخريجين وحدهم فى استعدادهم العلمى، وإنما تتجاوزهم بعد ذلك إلى الأجيال الصاعدة التى يقومون بتعليمها، لأن فاقد الشىء لا يعطيه، وهكذا تدور هذه الحلقة بدءا وانتهاء بهذه الصورة غير المرضية التى لها مردودها السلبى الواضح فى الحياة العامة.

(ب) فإذا انتقلنا من الدور التعليمى إلى الدور الثانى وهو دور البلاغ أو الإبلاغ والإرشاد فإننا نجدا أن هناك أسبابا كثيرة أدت إلى تراجع مؤسسات العلم الدينى فى القيام بهذا الدور، والأسباب هنا منها ما هو ذاتى يعود فى المقام الأول إلى أسباب التراجع فى القيام بالدور الأول الذى اشرنا إليه ومنها ما هو خارج عن مسئولية هذه المؤسسات، لأنها تعود إلى أنشطة حياتية أخرى تحدث أثرا معاكسا أو مناقضا لما تريد أن تحدثه مؤسسات العلم الدينى من حيث الإبلاغ والإرشاد والتعريف والتوضيح لكل ما يتصل بتعاليم الإسلام الخاصة بشئون الدين والدنيا فمن هذه الأسباب ما يتصل ببعض وسائل الإعلام التى تخلت عن الإعلام الهادف، وآثرت عليه إعلاما آخر يجرى وراء الربح المادى مهما كانت الوسيلة التى تؤدى إليه، إذ لا فرق بين وسيلة مشروعة، وأخرى غير مشروعة، ولا فرق بين وسيلة تعلى من شأن القيم الفاضلة، وأخرى تحارب هذه القيم، ولذلك كانت عوامل الهدم أكثر من عوامل البناء، وعوامل التزييف والتزوير أكثر من عوامل التصحيح والإجادة. ومن هنا لم يظهر الأثر الذى يريده علماء الدين من وراء ما يقومون به فى رسائل البلاغ والإرشاد.

هذا فيما يخص بعض وسائل الإعلام التى تمثل قوة مضادة للرسالة الإيمانية التى تقوم بها مؤسسات العلم الدينى، وهى قوة ضاغطة، وقوة فاعلة فى جمهور المتلقين الذين ليس لديهم الخلفية العلمية الدينية الصحيحة، حيث افتقد العلم الدينى مكانه خارج هذه المؤسسات، ومن ثم كانت هذه الجمهرة صيدا ثمينا لأصحاب هذه الوسائل الذين لا هم لهم إلا اللجوء إلى كل وسيلة مغرية وجاذبة ياتى من ورائها ما يريدون اكتسابه من متاع الحياة الدنيا.

لكن إلى جانب هذا السبب، فإن هناك سببا ثانيا يعود إلى الدخلاء والأدعياء فى ميدان التوجيه

الدينى، وهؤلاء أيضا لهم أثر فى إحداث التراجع فى دور مؤسسات العلم الدينى، ذلك لأن هؤلاء الأدعياء يصنعون مزاحمة فى الميدان ذاته الذى تعمل فيه هذه المؤسسات، وهى مزاحمة فى القيام بالدور نفسه، وقد تعددت القنوات التى يملكها هؤلاء المزاحمون، الذين لا يحرصون على أن يكون المتحدث لديهم من ذوى الكفاءات الدينية المتخصصة، وإنما فتحوا الباب على مصراعيه للجميع، مادام الواحد قادرا على إجادة الحديث والخطاب والحوار، دون نظر على الخلفية العلمية، وإذن لم يعد الميدان مقصورا على أصحاب مؤسسات العلم الدينى فاختلط صوتهم بأصوات غيرهم ولم يعد المتلقى قادرًا، على التمييز بين هذا وذاك، وأصبح فى حيرة من أمر نفسه، لا يدرى عن أى واحد يأخذ، ولا إلى أى متحدث يستمع، ولا إلى أى اتجاه يسير، ومن ثم أصبح صوت مؤسسات العلم الدينى خافتا وسط هذا الضجيج الذى يملأ الفضاء وبالإضافة إلى ذلك فإننا لا نعفى من ينتمون إلى مؤسسات العلم الدينى من المسئولية الذاتية لإيجاد بعض أسباب التراجع وذلك حين يختلفون فيما بينهم حول قضايا اجتهادية، ويصدرون الاختلاف إلى الناس، وقد يكون اختلافا يمثل أمرين متناقضين وبخاصة فيما يتصل بقضية الحلال والحرام، و الإتباع والابتداع والأصالة والمعاصرة، وهذا أمر من شأنه أن يؤدى إلى التقليل من القبول للآراء التى تصدر بشأن هذه القضايا، ومن ثم يبقى الناس أيضا فى حيرة من أمر أنفسهم، بينما كانوا يتطلعون إلى أن يجدوا ما يشفى صدورهم، ويخرجهم من حالة الترقب والتردد إلى حالة اليقين الذى لاشك فيه.

هذا إلى جانب إغفال الحديث حول القضايا الحياتية المعاصرة لدى بعض القائمين برسالة الإبلاغ والإرشاد، وقد يكون هذا الإغفال راجعا إلى عدم الدراية الكافية بهذه القضايا وكيف تعالج، أو يكون راجعا إلى التحرج فى الحديث عنها فى الملأ، أو إلى عدم التمكن من اللغة المناسبة التى يكون عليها الحديث حسب مقتضيات الأحوال.

ثم يضاف إلى كل ما سبق أن القيام بهذا الدور أصبح مقصورا على المساجد فقط من خلال خطبة الجمعة الأسبوعية، أو من خلال الدرس الدينى والندوة الدينية التى تكون فى بعض المساجد، دون أن يكون القيام بهذا الدور عاما شاملا فى المساجد وغيرها من سائر التجمعات التى تكون فى المدارس والمعاهد والجامعات والأندية والجمعيات ومراكز الشباب، فضلا عن عدم التواجد فى كل وسائل الإعلام بالصورة التى تعين على أداء هذا الدور خير قيام..

(ج) أما الأسباب التى أدت إلى التراجع فى دور الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتصحيح لكل ما يطرأ على المجتمع من سلبيات تخالف منهج الإسلام فإنها كثيرة، منها وفى مقدمتها غياب الردع والعقاب الحاسم الزاجر المخيف لكل من يأتى أمرا منكرا يسىء إلى الحياة الإنسانية بصفة

عامة، ويسىء كل الإساءة إلى الدين ذاته حيث يكون هينا فى النفوس، ولا يكون له الإجلال والتقدير والتعظيم الواجب له... إن العلماء لا يملكون فى مواجهة المنكر إلا سلاح الكلمة القائم على الموعظة الحسنة، وعلى التذكير بالعقاب عند الله عز وجل للذين يأتون المنكرات ويستمرون عليها، ويشيعونها بين الناس بكل وسيلة من وسائل الدعاية والنشر، ولكن هل كل النفوس مهيأة لتقبل الموعظة، وللخوف من العقاب فى الآخرة ،إن الواقع الحياتى يثبت لنا خلاف ذلك، فالناس جمعيا يعرفون معالم المعروف، كما يعرفون معالم المنكر، ويعرفون ثواب المعروف، ويعرفون عقاب المنكر، ومع ذلك فإنهم مختلفون فى درجة الاستجابة للآمر بالمعروف وللناهى عن المنكر، فمنهم من يكفيه سماع الكلمة الآمرة، والكلمة الناهية، فيستجيب للأمر وينفذه طاعة لله عز وجل وحرصا على اكتساب الثواب العظيم والأجر الجزيل من رب العالمين، كما يستجيب للنهى فيكف نفسه عن المعصية، ويمنعها من الاقتراب منها، ويعود إلى ربه تعالى تائبا نادما مستغفرا، ويصلح من أمره ما فسد، ويكثر من الأعمال الصالحة الحسنة لعل الحسنات يذهبن السيئات لكن إلى جانب ذلك هناك فريق من الناس يعرض مزورا عن النصيحة والموعظة، ولا يلقى لها بالا، بل ربما يسخر من أصحابها، ويعدهم من الرجعيين أعداء الحضارة والمعاصرة، وربما زاد فوصفهم بالمتخلفين، ومن ثم يزداد بعدا عن الفضائل، ويزداد قربا من الرذائل، ويتباهى ويفخر بإتيانها، وبعد ذلك تقدما وتحضرا، ويعلن ذلك على الملأ دون حياء، ودون رادع من ضمير، أو زاجر من دين فماذا يصنع عالم الدين إزاء هؤلاء ؟ إنه لا يملك إلا الكلمة أولاً وأخيرًا، ولا يملك توقيع العقوبة على العصاة المتمردين الخارجين عن طاعة الله عز وجل، ولا يملك وسيلة العقاب الزاجر إلا أولو الأمر الذين بيدهم مقاليد الأمور، وبيدهم وسائل ضبط الحياة العامة فى كل ميادينها، وبيدهم أيضا العقوبات الكثيرة التى وضعتها الشريعة ووضعتها القوانين، والتى هى كافية كل الكفاية لأن توقف المنكر إذا ظهر، وأن تأخذ على يد من يأتيه حتى يرتدع ويزدجر ويذوق عاقبة أمره، ويكون عظة وعبرة لغيره ممن تسول له نفسه أن يأتى شيئا من المنكر فى مستقبل الأيام..

إن غياب الردع الزاجر السريع فى المجتمع هو الذى شجع العصاة على الاستمرار فى معاصيهم، وشجع ضعاف النفوس على الخروج على كل نظام يحد من نشاطهم، ويقف حائلا بينهم وبين ما يريدون ارتكابه من الجرائم، ومن ثم ظهرت الساحة الحياتية وكأنها أصبحت حكرا عليهم يسرحون فيها ويمرحون كما يشاءون، ويأتون من المنكرات ما يحبون، وأصبحوا يمثلون قوة باعثة على الرعب والخوف بين فئات المجتمع، بحيث يفتقد كل فرد الشعور بالأمن والأمان على نفسه وأهله وبيته، يفتقده إذا نام وإذا استيقظ وإذا سار وإذا ركب، وإذا ساد فى المجتمع مثل هذا الشعور، فإن ذلك يعكر صفو الأمن العام، كما يكون عاملا من عوامل ضعف الإنتاج وتأخره يوما بعد يوم.

إن هذا المظهر السىء المترتب على غياب الردع الزاجر السريع هو الذى ساعد على الحكم بتراجع دور مؤسسات العلم الدينى، وهو تراجع قهرى إجبارى، أو هو نتيجة حتمية لذلك الغياب، ومن المعروف أن الله تعالى يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وهو أمر ينطبق على هؤلاء الخارجين المارقين المجاهرين بالمعاصى، إنهم أولئك الذين لا تؤثر فيهم الكلمة؛ ولا يؤثر فيهم الترغيب أو الترهيب، وإنما تؤثر فيهم العصا، ويؤثر فيهم السوط، ويؤثر فيهم ما يؤلم الأجساد والجلود، إن عبيد الشهوات تصدق عليهم المقولة التى قليت وتقال وهى: (العبد يقرع بالعصا، والحر تكفيه الملامة) وليس الأمر فى هذا المجال مقصورا على أولئك الذين يرتكبون المنكر فى سلوكياتهم دون رادع وزاجر، وإنما هو أمر يتعداهم ويتجاوزهم إلى غيرهم من المحرضين على ارتكاب الآثام والمعاصى، وهؤلاء قد يكونون من أبناء جلدتنا الذين يعيشون بيننا ويكتسبون حطام الدنيا من المتاجرة فى هذا الميدان، وقد يكونون من أعدائنا خارج بلادنا، الذين يتربصون بنا الدوائر، ويدبرون للإسلام والمسلمين شتى المكائد، التى تصرف الناس عن الالتصاق بدينهم، وعن العمل بتعاليمه، ويبثون عبر الفضاء كثيرا من برامج اللهو والإغراء الفاضح، الذى يستميل ضعاف النفوس وضعاف الإيمان، وهو اتجاه يدخل تحت عنوان الغزو الأخلاقى إضافة إلى ما هو معروف بالغزو الفكرى الذى يبث أيضا عبر الفضاء، وهما غزوان لا يقلان خطرا عن الغزو العسكرى، بل هما أشد خطرا، لأن الجهاد العسكرى هو الجهاد الأصغر، أما جهاد النفس والعقل فإنه الجهاد الأكبر إزاء هذين الغزوين.

إن هذا الغزو بصورتيه لم يقابل بما يقتضيه من مواجهة على مستوى المسئولية العامة بذات الدرجة التى يقابل بها الغزو العسكرى، نظرا للقصور الذى طرأ على معسكرات مؤسسات العلم الدينى كما أوضحنا، فكان ما كان من ظهور هذا التراجع فى أداء هذه المؤسسات..

ثالثا : عوامل إنجاح دور مؤسسات العلم الدينى :

القاعدة المشهورة تقول لنا: إذا عرف الداء عرف الدواء، بمعنى أننا إذا عرفنا الأسباب التى أدت إلى تراجع مؤسسات العلم الدينى فى أداء دورها المنوط بها، فإننا نكون فى الوقت نفسه قد وصلنا إلى وضع أيدينا على الوسائل التى تقضى على هذه الأسباب، ومن ثم تكون تلك هى بداية العودة إلى الطريق الصحيح الذى يعين على أن تؤدى هذه المؤسسات دورها فى مظاهرها الثلاثة التى أشرنا إليها

(أ) فبالنسبة لدور هذه المؤسسات فى مجال العلم والتعلم والتعليم، فإن نجاحها فى أداء هذا الدور لا يكون إلا من خلال الاختيار الأمثل لطلاب العلم الذين يلتحقون بهذه المؤسسات، وأعنى بذلك أنه

لابد أن يكون هؤلاء الطلاب من المتميزين عقليا ونفسيا وفكريا، فكيف نجتذب أمثال هؤلاء فى ظل المنافسة الشديدة التى حظيت بها مؤسسات القمة التى أشرنا إليها من قبل ؟ إن الإغـراء لابـد أن يقابله الإغراء، والحافز لا يقف أمامه إلا الحافز المساوى، ونحن نستطيع أن نوجد الإغـراء وأن نوجد الحافز إذا كنا حريصين على أداء متميز لهذه المؤسسات، نستطيع ذلك حين نغرى المتميزين الذين يلتحقون بهذه المؤسسات، بميزان وبحوافز كافيه تصاحبهم فى حياتهم التعليمية مـن حيـث الإقامة والإسكان المتميز فى كل ما يتعلق بضرورات الحياة إضافة إلى العطاء المادى الذى يحقـق المظهر الطيب اللائق بعالم الدين، مع الوعد المتكفل بامتداد هذه الرعاية حين يخرج إلى الحياة بعد انتهاء فترة الإعداد العلمى، بحيث لا يواجه ما يعرف بالتعطل أو البطالة، وإنما يكون الأمر شـأنه شأن إعداد أفراد القوات المسلحة، كما أشرت إلى ذلك من قبل لأن هؤلاء وأولئك يعيشون فى خندق واحد، ويعملون من أجل غاية واحدة، ويواجهون عدوًا واحدًا وإن اختلف هذا العدو بـين مـصدر ومصدر، ومكان ومكان.

هذا بالإضافة إلى إعداد مكان تلقى العلم فى هذه المؤسسات بحيث يكون على المستوى اللائق، وبحيث تتوافر فيه كل وسائل العلم الحديث، وبحيث يتوافر فيه جمال المظهر وجمال الخبر وبحيث تطبق فيه عوامل الانضباط العلمى والسلوكى والعملى، كما تطبق بالنسبة لأفراد القوات المسلحة إن الوصول إلى الغاية المرجوة فى أداء دور هذه المؤسسات فى مجال العلم والتعلم لن يتحقق إلا مـن خلال التفرغ الكامل لطلاب العلم ليلا ونهارا، صباحا ومساء طوال سنى الدراسة إضافة إلى تفرغ القائمين على أمرهم من الأساتذة والمشرفين والإداريين والقائمين على أمور الإعاشـة والترفيـه، أسوة بما هو معمول به فى دوائر العلم المرموقة ومراكز البحث التى تخص المستويات العليا فـى الأمة.

(ب)أما بالنسبة للدور الذى تقوم به مؤسسات العلم الدينى فى مجال التبليغ والإرشاد والتعريف بتعاليم الدين الحنيف فإن القضاء على التراجع فى أداء هذا الدور يكون بتلافى الأسباب التـى أدت إلى التراجع ، وقد ذكرنا أن من الأسباب التى أدت إلى التراجع، ما تقوم به بعض وسائل الإعـلام المرئى والمسموع والمقروء من القيام برسالة إعلامية مضادة لرسالة الإعلام الدينى، وهذه الوسائل المضادة لابد من موقف حازم معها، ولن يدخل ذلك أبدا فى باب مصادرة حرية التعبير إذ لا حرية أبدا فى مجال إشاعة المنكرات عبر الكلمة والصورة، وإلا ما كان هناك داع لوضع القوانين التـى تحد من إساءة استخدام الكلمة تحت ذريعة حرية التعبير، فالحرية لا تعنى إلا الحريـة المنـضبطة الفاعلة الراشدة المرشدة، والأمة التى تحرص على ملكيتها المكانية لا تقبل أبدا أن يسلبها أحد هـذه الملكية، ومن يحاول ذلك فإنها تقف له بالمرصاد حتى لو أدى الأمر إلـى المواجهـة المـسلحة،

والملكية الأخلاقية لا تقل أبدًا عن الملكية المكانية إن لم تكن أزيد منها فى تكوين جسد الأمة تكوينا قويا صامدا يحقق لها الوجود المعترف به فى الحياة ومن هنا كان الدفاع عن الملكية الأخلاقية شأنه شأن الدفاع عن الملكية المكانية، وهؤلاء الذين يحاربون الأخلاق عبر وسائلهم الإعلامية يمثلون وجها من وجوه العداوة للأمة نفسها، ومن هنا يأتى وجوب التصدى لهم عن طريق الأمة بحيث تجبرهم على التوقف عن السير فى هذا الطريق، فإذا جفت هذه المنابع فإن ذلك سوف يكون معينا على أن تقوم مؤسسات العلم الدينى بأداء دورها خير قيام دون أن يكون هناك من يهدم ما تبنيه.

وإضافة إلى ذلك فإن مؤسسات العلم الدينى ينبغى أن يكون لديها من وسائل التبليغ العلمية المعاصرة ما يعينها على أداء دورها خير أداء دون الاكتفاء بالأسلوب التقليدى المحدود الذى يقوم على اللقاء المباشر فى جمع معين، وفى لقاء محدود بحدود المكان الذى يوجد فيه هذا الجمع الصغير. إن العلم الحديث وفر كثيرا من وسائل النشر والإذاعة والإبلاغ، ومن الواجب أن تكون هذه الوسائل فى أيدى هذه المؤسسات، ولن يكون ذلك إلا من خلال توفير الإنفاق المادى الذى يوفر هذه الوسائل، وهو إنفاق يجب أن يتعاون فيه الجميع أفرادا وهيئات وحكومات، كما أنه إنفاق يدخل فى باب الإنفاق فى سبيل الله تعالى، وسوف يكون له من الثواب العظيم ما يمثل ثواب المنفقين على المجاهدين فى ميدان القتال، فالمجاهدون بالكلمة يتساوون مع المجاهدين بالسلاح فى كل شىء كما أشرنا من قبل، وسوف يجد هذا الاتجاه قبولا لدى أهل الخير المحبين لمعرفة الدين، العاملين على إعلاء كلمته، وعلى إظهاره على الدين كله كما أراد رب العالمين.

وفى هذا المجال لا بأس من اللجوء على استخدام وسيلة التعليم المفتوح، الذى يجمع بين التعليم، والإبلاغ والإرشاد فى وقت واحد، لمن يريد أن يتعلم، ولمن يريد أن يسترشد ويعرف معالم دينه على الوجه الصحيح.

هذا بالنسبة لهذه القوى المضادة للإعلام الدينى التى تذيع الإعلام اللاأخلاقى، أما بالنسبة لأولئك الذين يزاحمون أهل الاختصاص فى اختصاصهم، ويعملون فى الميدان ذاته وهم من غير أهل الاختصاص والتخصص الذين يعرفون بالأدعياء أو الدخلاء فإن السبيل إلى منعهم من هذه المزاحمة إنما يكون عن طريق المتابعة الدقيقة لكل ما يقولون بحيث يكون هناك التعريف الواضح السريع الذى يقضى على الشبهات التى يمكن أن تأتى على ألسنتهم، وفضلا عن ذلك فإنه ينبغى أن لا يعطى ترخيص لأصحاب هذه القنوات إلا إذا كان مصحوبا بضرورة التقيد باستضافة أهل التخصص الذين اخذوا العلم عن أهل الاختصاص فى معاهده ومؤسساته، وأن لا يفتح الباب على مصراعيه أمام كل أحد يريد أن يتكلم فى الدين، فكما أنه لا يستطيع كل أحد أن يتكلم فى الطب أو

الهندسة أو الصيدلية وغير ذلك من سائر العلوم، فكذلك الأمر بالنسبة لعلوم الدين يجب أن لا يتحدث فيها إلا من كان خبيرا بها من خلال دراستها الدراسة العلمية المتخصصة، وإلا من عايش هذه العلوم سنين عددا ووصل فيها إلى درجة الخبير المتخصص، شأنه شأن من يكون خبيرا فى العلوم الأخرى، وهذا أمر بدهى لا ينكره إلا مكابر ولا يعزف عنه إلا من أراد أن يتسلق على أكتاف الآخرين، وأن يوجد لنفسه مكانة زائفة، يأتى من ورائها الضرر أكثر من النفع، وتعود فى النهاية على المشهد الدينى بما يسىء إليه بين الأوساط الأخرى.

(ج) وأما بالنسبة للدور الثالث الذى تقوم به مؤسسات العلم الدينى، والذى شهد تراجعا يحسب عليها، وهو القصور فى مجال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والذى يستدل عليه من كثرة الجرائم والمنكرات التى يجاهر بها مرتكبوها بحيث أصبحت تمثل ظاهرة اجتماعية بارزة، فإن معالجة هذا التراجع الناتج عن القصور وقلة التأثير تأتى من تفعيل الضوابط الشرعية والقانونية تفعيلا مشهودا معلنا وبارزا وظاهرا، بحيث يحسب ألف حساب كل من تسوّل له نفسه أن يقترف جريمة من الجرائم، أو يأتى بأمر فيه محاربة لله ولرسوله وللمؤمنين ونعتقد أن تطبيق العقوبات تطبيقا فوريا علينا ومذاعا عبر وسائل الإعلام سوف يحد من هذه الظاهرة ويقلل من آثارها، وسوف يكمل الدور الذى يقوم به أرباب الكلمة، وأصحاب الموعظة من علماء هذه المؤسسات فى مجال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ إن منهج العقاب الرادع الزاجر نأخذه من قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (المائدة:٣٣)، وما لم يتواكب هذان المنهجان معا فسوف تظل الفجوة واسعة بين الواقع والمأمول فى صلاح المجتمع ذلك الصلاح الذى يؤهل الإنسان للقيام برسالته فى الحياة على أكمل وجه وهى رسالة التعمير وإحسان العمل كما قال الله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود:٦١)، وكما قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الملك:٢)، وكما قال عز وجل: ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص:٧٧).

ذلك هو دور مؤسسات العلم الدينى فى حياة الأمة، وتلك هى الأسباب التى ساعدت على إحداث تراجع ملموس فى القيام الأمثل بهذا الدور، وهذه هى العوامل التى تعين على القضاء على هذا

التراجع وإحداث البديل وهو إنجاح هذه المؤسسات فى القيام بدورها خير قيام. والأمل معقود على أولى الأمر أيا كان موقعهم فى تحقيق هذا النجاح الذى نحن بحاجة ماسة إليه فى حياتنا كحاجتنا إلى الهواء الذى نتنفسه، وإلى الطعام الذى نأكله، وإلى الماء الذى نشربه ،وإلى الدواء الذى نتداوى به : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الذاريات:٥٥).